

الفصل السادس

نظرة فاحصة

(١) كيف تكونت الأوديسا

سلك القناد بإزاء الأوديسا نفس النهج الذى سلكوه بإزاء الإلياذة فوصلوا من بحثهم إلى نتائج إن لم تكن مماثلة للنتائج الأولى فمن الممكن أن توازن بها نسبياً .

وكما أنه لم يتنبه أحد من الأثينيين إلى انتقال شيء من الإلياذة ، لم تفتن كذلك أية عقلية من العقليات البارزة فى ذلك العصر إلى أن بعض أناشيد الأوديسا مضاف ، ولعل عذرهم فى هذا هو تماسكها الرصين الذى يلفت الأنظار والذى كان ستاراً حال بين تلك العقليات الممتازة وبين إدراك الحقيقة . ومن آيات هذه الغفلة أن أرسطو نفسه كان يؤمن بأن هذه القصيدة هى بحذاقها لهوميروس . وإليك عباراته فى هذا الشأن :

« إن هوميروس الذى فاق جميع الشعراء الآخرين فى كل شيء قد امتاز على الأخص - سواء أكان ذلك ناشئاً من معرفته بالفن أم كان فطرياً فيه - بإدراك ما يؤلف وحدة القصيدة ، فعند ما أنشأ الأوديسا لم يتخذ كموضوع لها كل حوادث حياة أوديسوس . فهو لم يعرض مثلاً لحادثة جرحه الذى أصابه فوق جبل البرناسوس ولا لحادثة الجنون الذى تصنعه حينما كان الجيش يستعد للرحيل إلى تروادة لأن أية هاتين الحادثتين ليست بحالة توجب نشوء الأخرى عنها بالضرورة ، بل ولا بالرجحان . وبدلاً من ذلك ألف كل الأوديسا حول مآذعه عملاً واحداً ، وكذلك الحال بإزاء الإلياذة »^(١) .

(١) Aristote, Politique, ch. VIII .

لا ريب أن هذا النص يدل على أن فكرة الانتحال في الأوديسا لم تكن تخطر لأحد من نقاد العصر الأثيني ، أما نقاد العصر الاسكندري فقد لاحظ بعضهم أن في قليل من أناشيدها مناظر دخيلة أضيفت إلى القصيدة البدائية كما أشرنا إلى ذلك في الفصل السالف . وأما نقاد العصور الحديثة فقد اتسموا على أنفسهم على النحو الذي رأيناه في الإلياذة فوقف « نيتش » و « ميلير » في صف أنصار الوحدة الهوميروسية كما كانا هناك . ومن أهم الاعتراضات التي وجهت إلى هذا الرأي ما يلي :

(١) إن الأناشيد التيليامخوسية تحول دون التماسك والوحدة اللذين هما أكبر مميزات الشعر البدائي ، وفوق ذلك فإنه لكثير على هوميروس أن يخصص أربع أناشيد كبيرة ليافع في مقتل العمر كتييليامخوس .

(٢) إن أشد أنصار فكرة الوحدة تعصباً رأيهم لا يستطيعون أن يجحدوا أن بعض مناظر الأوديسا والأنشودة الرابعة والعشرين منها مضافة في العصور المتأخرة ، ومتى قبلوا هذا المبدء فلا يستطيعون المعارضة في إمكان تسرب الانتحال إلى البعض الآخر ، وبالتالي لا يستطيعون إنكار لحوق تعدد المصادر بهذه القصيدة .

غير أن أنصار فكرة التعدد لا يجحدون في الأوديسا ما وجدوه في الإلياذة من التنافر الذي عثروا عليه بين بعض أناشيدها بفضل بحوثهم وموازناتهم ، لأن أكثر أناشيد الأوديسا مرتبط ببعض ارتباطاً يجعل من العسير كشف كثير من التفكك أو عدم الانسجام . ولهذا الصعوبة التي قامت في وجوه نقاد الأوديسا لم تكتب في نقدها بحوث منهجية كالتى كتبت في نقد الإلياذة .

ومهما يكن من شيء فإن الرأي المعتدل من بين تلك الآراء هو رأى الأستاذ الألماني « كرشهوف » الذى نجمله فيما يلى :

إن الأوديسا تنقسم إلى ثلاث مجموعات الأولى ما تشمل قصة أوديسوس وهى من الأنشودة الخامسة إلى أواخر الثالثة عشرة مع بعض الإضافات .

الثانية هي ماتحتوى على عودته إلى إيثاكيه ، وهي من أواخر الأسودة الثالثة عشرة إلى نهاية القصيدة .

الثالثة هي التيلياخوسية وهي الأناشيد الأربع الأول .

وقد أقر الأستاذ كروازيه هذا التقسيم ولكنه لم يجار صاحبه في طريقة التكون التي يحيل إليه أن مؤلفي الأوديسا سلكوها في تأليفهم إياها ، بل سلك لذلك طريقاً آخر مؤداه أن أكثر المجموعة الأولى^(١) بدائي وإن كان ذلك لا يمنع من القول فيها بإضافات كثيرة ولا سيما في الأنشودتين العاشرة والثانية عشرة . والسبب الذي يحمل هذا الأستاذ على الميل إلى بدائيتها وإلى نسبتها إلى شاعر واحد - قد يكون هو « هوميروس » - هو أن القارئ كثيراً ما يعثر بين أناشيدها وبين الأناشيد البدائية في الإلياذة على صلات تلفت النظر .

أما المجموعة الثانية^(٢) فقد وضع أكثرها شاعر آخر قديم أيضاً بقصد استمرار الحوادث وتتابع القصة ، ولكن هذا الشاعر لم يكن في مثل عبقرية الأول ولم يمنح من خصوبة الخيال ولا من العظمة الطبيعية مثل مامنح ، وإن كان شاعراً قديراً جديراً بالإعجاب يمتاز على الأخص بتصوير الأخلاق المختلفة ورسم الطباع المتباينة . وقد قصد صاحب هذا الرأي بنسبة أكثر هذه المجموعة إلى شاعر واحد أن بعض أناشيدها من وضع شاعر آخر أو عدة شعراء ، وذلك كالأنشودتين الثامنة عشرة والرابعة والعشرين وبعض إضافات آخر .

أما المجموعة الثالثة^(٣) فقد ألّفها في رأيه شاعر ثالث متأخر ، والسبب الذي حمل على إضافتها إلى الأوديسا القديمة هو أنه رآها أقصر من الإلياذة ، وكانت فكرة تسوية هذه القصيدة بسالفتها تملك عليه كل شيء فأضاف إليها هذه الأناشيد ، لتساوى معها وإن لم تتحقق

(١) يقصد بالمجموعة الأولى هنا المجموعة الثانية في الوضع الراهن ، وهي من الأنشودة الخامسة إلى نهاية الثانية عشرة .

(٢) يقصد بالمجموعة الثانية المجموعة الأخيرة ، وهي من الأنشودة الثالثة عشرة إلى نهاية الأوديسا .

(٣) الثالثة الأناشيد الأربع الأول .

له هذه الغاية وقد حاول جهد طاقته أن يوجد بين هذه المجموعة وبين المجموعتين السالفتين من الانسجام ما استطاع إلى ذلك سبيلاً .

ومستوى هذه المجموعة الأخيرة في رأيه أخفض من مستوى المجموعتين الأولى والثانية ، ولكن هذا الجهد الذى قام به الشعراء فى ربط بعض تلك المجموعات ببعض الآخر قد حقق الوحدة فى الأوديسا وجعلها تبدو أكثر تماسكاً من الإلياذة .

(ب) لمحة خاطفة عن الأوديسا

تصغر الأوديسا فى الكمية الشعرية عن الإلياذة قليلاً كما أبنا ذلك فى موضعه من الفصل الماضى . ويخيل إلى كثير من النقاد أن أسلوب الأوديسا أكثر من أسلوب الإلياذة رصانة ورسوخاً ، وقد يكون ذلك صحيحاً ، ولكن أسلوب الإلياذة يفيض قوة وحيوية وتدققاً . أما الأوديسا فهى هادئة ساكنة كأنها تسير بخطى متثاقلة تشبه خطى الشيوخ المتحطمين ، وهى خالية تقريباً من تلك الفصول الجبارة التى تستولى على القلوب ، وتهيج الانفعالات النفسية ، التى أفعمت بها الإلياذة من أولها إلى آخرها ، إلا أن الأوديسا تمتاز بأنها أقرب إلى الحقائق الواقعية من الإلياذة إذا استثنينا ظواهر ما تموج به صفحاتها من خرافات وأساطير . ويلاحظ بصفة عامة أن المؤلف كان يرمى فى الأوديسا إلى الضبط والتقرب من الواقع بقدر المستطاع ، أما فى الإلياذة فقد كانت مهمته التجميل الأسلوبى ، والإزهار الشعرى ، وإبلاغ زينة الجمل والعبارات أقصاها .

ومما لفت أنظار النقاد المحدثين إحكام التماسك وتحقيق الوحدة فى الأوديسا أكثر منهما فى الإلياذة إلى حد أن صعب على الباحثين كشف التنافر بين بعض أناشيدها بهيئة تعيينهم على إبداء آراء قاطعة فى كيفية تكونها تشبه آراءهم بإزاء الإلياذة . ومن ذلك أيضاً أن حوادثها - وإن كانت مركزة - هى غير شديدة الانضغاط المغالى الذى يصعب مهمة القارئ ، ويجعل متابعة القصة والاحتفاظ بها مرتبة فى الذاكرة أمراً عسيراً وتلك هى إحدى ميزات الإلياذة كذلك .

غير أنه ينبغي أن نعلن أن الأوديسا أقل تنوعاً من الإلياذة ، ولسنا نمنى بالتنوع مظاهره الخارجية فهي هنا أكثر منها هناك ، إذ لا يكاد مؤلف الأوديسا ينزل بنا في جزيرة حتى يبحر بنا منها إلى غيرها ، ولا يكاد يرينا في أنشودة عجيبة من العجائب حتى يطلعا في الأنشودة التالية على أخرى تختلف عن الأولى في طبيعتها ومظهرها وأفعالها ونتائجها ، ولا يوشك أن ينقذ بطله من هوة حتى يُطَوَّحَ به في أعماق منها ، ولا ينجيه من كارثة إلا ليقذف به بين برائن نكبة أفدح وأخطر من سالفتها . لا نقصد هذا اللون من التنوع فهو موفور في الأوديسا ، وهو لا بد منه سواء أراد المؤلف أم لم يردده ، لأن طبيعة القصة التي ترويها الأوديسا تقتضيه وتحتمه ، وإنما نعني التنوع الداخلى العميق الذى تكتظ به أناشيد الإلياذة من اختلاف المشاعر ، وتباين الأحاسيس ، وصمود نتائج المعارك وهبوطها ، ورجحان كفة الهيلينيين تارة وكفة الترواديين أخرى وما شاكل ذلك مما يعتبر في الإلياذة أشبه أن يكون نوعاً من الإعجاز ، لا سيما وأن تلك الخمسة عشر ألف بيت وخمسمائة تروى حوادث خمسة أيام فقط ، وهذا من شأنه أن يجعل التنوع صعب المنال ويشهد لمن استطاعه بالعقريّة البالغة حد الندرة .

ويرى الأستاذ كروازيه أن المؤلف البدائى للأوديسا ليس هو المؤلف البدائى للإلياذة ، بل هو شاعر آخر جاء بعد الأول بزمن كاف لتغيير التفكير والروح الاجتماعية . ومن آيات ذلك عنده أنه لو كان مؤلف الأناشيد البدائية في القصصيتين واحداً لرأبنا في الأوديسا روحه الثائرة ، وعواطفه الملتهبة ، وأسلوبه الحاد ، وعباراته القاسية ، ومعانيه الغنيمة التى تفيض بها الإلياذة ، ولا يمكن أن يمنع من هذا أن الأوديسا ليست ملحمة حربية كسالفتها ، ففيها من الحوادث ما كان يمكن أن يُؤدَّى بذلك الأسلوب ، وأن تشع من جوانبه تلك العواطف ، ولكن ذلك لم يكن ، وأكثر من هذا أنه لو كان مؤلف الإلياذة هو الذى أنشأ الأوديسا لما كرس كل هذا القسم الطويل الأخير منها لتلك الحوادث الضئيلة التى شغلته ، أو قل لما أضاعه بين الإقامة عند الراعى والثواء فى القصر متخفياً ، بل لطاف بهذه الشؤون الثانوية طوفاناً عاجلاً ، وكّرّس الباقي لوصف المعركة التى

اشتعلت بين أوديسوس وخصومه الأدعياء وصفاً حريياً يثير الشعور، ويحرك العاطفة، ويهز القلب، ويفيض بأحاسيس البطولة، ويشعر القارئ بذلك الروح الثائر الذي طالما شعر به في الإلياذة، ولكن شيئاً من ذلك لم يحدث. ولعل السبب في هذا التباين هو تبدل روح العصر، والانصراف عن التحمس للقتال، واستبدال العنف بالانعطاف نحو طريق الحيل، فلم يجد المؤلف الثاني بدءاً من مجازاة عصره، فأسهب في وصف النفوس المختلفة، ورسم الطباع المتباينة، وإحكام الأحابيل والفخاخ، وإتقان الوسائل الناجحة لتحقيق الغاية القصوى وهي انتقام أوديسوس من أعدائه :

وهذا كله يؤيد اختلاف المصدر. ولاريب أن أكثر نقاد العصر يعتقدون هذا الرأي وإن كان غير مبتكر لهم، وإنما هو من مبتدعات العصر الاسكندري، فقد جحد في ذلك الحين « زينون » و « إيلانيكوس » نسبة الأوديسا إلى هوميروس، وشذا في هذا الرأي عن أهل عصرهما شذوذاً ترتب عليه أن دُعِيَاها وأنصارها من أجله بـ « كوريزنت » أى المعتزلة .

ويضيف الأستاذ كروازيه إلى ملاحظته هذه ما مجمله : ولكن هل معنى هذا أن الأوديسا تعوزها العظمة ؟ كلا ، فليس هذا رأينا وإنما هي تحتوى على نوع خاص من العظمة متسق الأجزاء يكاد الانسجام يربط أوائله بأواخره ، ويوشك الهدوء أن يدره بمعطف فضفاض شفاف يزيد رونقه بهاء ولا يحول دون ظهور جماله الطبيعي .

فإذا كانت الإلياذة تأسرنا وتملأنا إعجاباً ، وتستولى على نفوسنا فتثيرها بقوة ، فإن الأوديسا تسمو بنا في وداعة وهدوء إلى مستوى شعري يفيض بالسلام والسكون .

ليس ما ذكرناه هو كل ما بين هاتين القصيدتين من فروق جوهرية وإنما هناك فروق كثيرة أخرى تسترعى الانتباه . فمن هذا مثلاً أن الإلياذة مليئة بالتشبيهات كما أشرنا إلى ذلك في موضعه ، على حين يندر هذا النوع في الأوديسا ، وليس أدل على ذلك من خلو الثلثمائة بيت الأولى من أنشودة المعركة بين أوديسوس وخصومه خلواً تماماً من التشبيهات، مع أنه لو كان هذا المنظر قد مر في الإلياذة لألفينا فيه عدة تشبيهات ساحرة .

على أن هذه التشبيهات القليلة التي يعثر عليها القارئ في الأوديسا من حين إلى حين ليست من نوع تشبيهات الإلياذة ، فبينما يحس القارئ بأن مؤلف الإلياذة يستخدم التشبيهات للإطناب والتفخيم ، أو للتزيين والتجميل ، يرى أن مؤلف الأوديسا يستعملها لتوضيح الموضوع وإبراز المشبه في صورة ترغم الذاكرة على الاحتفاظ به ، ويشعر أنه تشبيه فني دقيق .
فمثال ذلك تشبيه المؤلف أوديسوس - حين يفقأ عين الكيكلوپيس بالحديدة الحماة -
بنجار يدير مثقبه في خشبة السفينة ليقبها .

وكذلك الحال في القصيدتين بإزاء الوصف . فبينما نراه في الأولى قد سيق لسحر النفوس وفتنة القلوب لا أكثر ولا أقل ، نشاهد أنه قد قصد به في الثانية إبانة التفاصيل ، وإيضاح الدقائق مجازاة لروح العصر التي كان حب الاستطلاع قد غلب عليها إلى حد عدم الرضى عن المجملات .

ومن هذه الأوصاف التي امتازت بها الأوديسا تصويرها الدقيق للطبيعة ومظاهرها المختلفة وألوانها المتباينة : بحارها وجبالها ، وسهولها وحزونها ، وتلالها وأوديتها ، وحقولها ومروجها ، على عكس الإلياذة التي استحال عليها وصف الطبيعة دون التشبيه بها كما أشرنا إلى هذا في حينه ، وذلك لانهيار موضوعها في معسكر الهيلين وفي مدينة تروادة المحاصرة .

ومما تمتاز به الأوديسا ذلك الفن القصصى المصحوب بمخضوبة في الخيال تكاد تكون منقطعة النظير ، فهذه السلاسل الطويلة التي تروى حوادث أوديسوس في رحلته لا تشبه تلك المناظر الحربية التي رسمت في الإلياذة ، وإنما هي تشبه قصص الشرقيين المفعمة بالغرائب والمدهشات ، ولكن جمال هذه القصص الساذجة فيما يرافقها من عواطف حقيقية ومبادئ أخلاقية . ومن أمثلة ذلك أسطورتا « الكيكلوپيس » و « كاربديس » و « اسكيليه » اللتين إن بدت عليهما الطفولة فإن في أعماقها أحاسيس قيمة ومبادئ عالية . وليس هذا بحسب ، بل إن أقدم مجموعات الأوديسا تنقلنا في ثمل مريح إلى بلاد خرافية حيث نرى زهوراً تفقد الذاكرة ، ونلتقي بإلهات ساحرات وكائنات مرعبة تتربص الدوائر بالمسافرين لتلتهمهم أو لتسحق رؤوسهم . ولا جرم أن هذه القصص المفرغة الساذجة كانت تسحر ذلك

الخيال الهيليني الشاب الذي كان يحسن تذوقها كما يحسن الشرقيون تذوق قصص سيف بن ذى يزن ، وألف ليلة وليلة وما إلى ذلك من الأعاجيب والخرافات .

بيد أن قصص الأوديسا لم تكن قاصرة على مهمة التسلية أو إرضاء الأخيالة ، وإنما هي تشتمل - إلى جانب ما قدمناه من فوائد - على معارف جغرافية لا ينبغي إهمالها أو الاستهانة بها . ويجمع كثير من النقاد على أن هذه الجزر المتراصة الأطراف لا يمكن أن تكون من خلق خيال المؤلف وحده ، وإنما هي منحدره إليه في رأيهم من مصدر فينيقي عن طريق بعض البحارة الذين جلبوا في عصور غابرة إلى بلاد الهيلين قصصاً غريبة ، ومستندات محددة على ما شاهدوه إبان رحلاتهم البحرية المتكررة ولقد تنبه القدماء إلى هذا فأعلن استرابون في وضوح أن الفنيقيين كانوا مرشدي هوميروس^(١) . ولقد أضأت هذه العبارة طريق البحث أمام العالم الفرنسي العصري الأستاذ فيكتور بيرار «Viceor Bèard» فتابع هذه الفكرة في عدد من مؤلفاته ككتب (١) «الفينيقيون والأوديسا» . (٢) «رحلات أوديسوس البحرية» . (٣) «نوسيكاً وعودة أوديسوس» وهلم جرأً .

ويمكن أن نجمل هذه الفكرة في أن مؤلف الأوديسا قد نسج خيوط جملها على أصل فينيقي جاف وإن كان متيناً . وبيان هذا أن الهيلين قد استولوا على العناصر الأولية والأسس البدائية لتلك القصص الخيالية الفاتنة ثم هلنوها وأنشئوا منها ذلك الإنتاج الهيليني الغني الذي يعد بحق عملاً فنياً خطيراً وهو الذي يدعى بالأوديسا .

ويرى هذا الباحث أن تلك الجزر التي تحدثت عنها الأوديسا ليست خرافية ولا من مبتدعات الخيال ، وإنما هي قد وجدت حقاً وشاهدها الفنيقيون إبان أسفارهم التجارية وسجلوها في محفوظاتهم ثم رووها أوصافها في أحاديثهم الشعبية مع الهيلين ، فأخذ هؤلاء الآخرون يتناقلون أعاجيبها الأصلية ، ويضيفون إليها من مبتكرات أخيلتهم ما ينميها حتى جاء هوميروس فاستغلها في قصص تلك الدرة العصماء ، ولكن بعد أن أضاف إليها هو أيضاً ما سمحت به عبقريته الشعرية الممتازة .

(1) Strabon, III , P. 150 .

وأكثر من هذا أن الأستاذ بيرار يعين لنا عدداً من تلك الجزر فينبئنا بأن كهف كاليبسو يوجد غربى مدينة ثيوتة أو (سبته) على شاطئ مراكش الإسبانية ، وأن مقر الككلوپيس يوجد فى إيطاليا على مقربة من نابولى ، وأن جزيرة المستريجون توجد فى شمال ستردينيا بالقرب من مضيق « بونيفشيو » وأن جزيرة « كركيه » على الشاطئ الغربى الإيطالى عند طرف بطيحة بونتان ، وأن جزيرة الفيكيان هى كركره «Corfou» .

ومن عجائب ما كشفت عنه البحوث الحديثة فى هذا الشأن أن الأقدمين قد فطنوا إلى مواقع أحداث الأوديسا وعينوا كثيراً منها فكانوا طليعة هذا التحقيق الهام . ومن أبرز أولئك القدماء الذين اهتموا إلى هذه النتيجة المؤرخ الإغريقى ثوكيديديس^(١) «Thukididès» وأخيراً ينبغى أن نقرر أنه مما لا يصح إغفاله أن الدين الهيلينى فى الأوديسا أرقى وأبقى منه فى الإلياذة ، إذ لا يجد القارئ بين سطور الأوديسا تلك الدنايا والذائل مجسمة فى آلهتها كما تجسمت بشكل واضح فى آلهة الإلياذة . ولا ريب أن هذه الظاهرة تدل على أن العقيدة الدينية كانت قد تقدمت تقدماً واضحاً فى أثناء الزمن الذى يقولون إنه فصل بين القصيدتين .

وليس تطور الدين أو غير الدين عند الهيلين فى وقت أيا كان قصره بالشئ الغريب ، لأن عقلية هذه الأمة مندفعة إلى التطور والرقى بفطرتها اندفاعاً ظهر أثره عملياً فى حياتها الاجتماعية والأدبية ، ونظرياً فى إيقان فلاسفتها بالسير المتواصل نحو الكمال .

(1) Thucydide, I, P. 25.